http://online.fliphtml5.com/rdnl/mgjc/#p=40

علم نفس

الاغتراب كمبطئ لنموّ الأطفال

بيتر بندلي

النضج العاطفيّ قسم من طبع الإنسان، وهو يحتاج إليه لينجح في الحياة وفي التعاطي مع الآخرين. من هذه المهارات العاطفيّة، القدرة على الصبر لتأجيل التلبية المباشرة لما يريده الإنسان وقدرته على الانتظار. عندما لا يدرك الإنسان النضج بعد، يتصرّف وكأنّ تفكير الآخرين وقولهم لا يشكّلان أهمّيّة بالنسبة إليه، والشيء الوحيد المهمّ هو تلبية الحاجة الذاتيّة. يتحدّث المعالجون عن النقص في هذا النضوج عند ظهور المشاكل النفسيّة الاجتماعيّة عند الأطفال. خلال مرافقة الأولاد ذوي المشاكل أو معالجتهم، تكمن المهمّة الكبرى في تحقيق الاستقرار والتوازن العاطفيّ لتعويض عدم النضوج. وهنا لا نرى فرقًا بين التعاطي التربويّ أو العلاج النفسيّ للأطفال، رغم أنّ المعالجين يحاولون أن يقنعوا الأهالي بأنّ للأولاد مشاكل نفسيّة جذريّة لا تعالج إلّا بالدواء. كلاهما، التربويّ والمعالج، يريدان تطوّر المهارات العاطفيّة لأنّهما لا يريان سواها سببًا للمشاكل.

في ما يلي أريد أن أظهر أنّ علينا ألّا ننظر فقط إلى النضوج العاطفيّ رغم أهمّيّته في تكوين الشخصيّة. فقدان النضوج أو عدم الحصول عليه سبب من الأسباب لنشأة المشاكل النفسيّة الاجتماعيّة عند الأطفال. لكن علينا ألّا ننظر إليه منفردًا، لأنّ الاغتراب أيضًا سبب مهمّ لنشأة المشاكل السلوكيّة عند الأطفال. والاغتراب هنا هو اغتراب الإنسان عن نفسه. علينا أن ندرك أبعاد الموضوع من كلّ جوانبه لكي نتعامل معه.

ما هو الاغتراب؟

دخَلَ الاغتراب الحياة الاجتماعيّة منذ سنين عديدة، وطغى على الإنسان ونفى سعادته ورجاءه. ورغم أنّ الاغتراب منبثق من النظريّة الاقتصاديّة فهو ليس مرتبطًا حصريًّا بالفكر الرأسماليّ. عند الاغتراب تُزال العلاقات الطبيعيّة وتنقلب إلى عكسها. بما أنّنا لا نعالج هنا نظريّة اقتصاديّة إنّما نظريّة في العلوم الإنسانيّة، فالاغتراب هنا هو اغتراب الإنسان عن نفسه وليس عن الموادّ التي ينتجها. في هذا النسق يبيع المرء حرّيّته الشخصيّة والفرديّة لينتمي إلى ما يسمّى المجتمع، وليحصل على القبول من الآخرين. الحرّيّة الشخصيّة هي شيء وجوديّ متعلّق بأن يكون الانتماء إلى ما نسمّيه مجتمعنا هو شيء يحصل عليه الإنسان.

1 von 5 20.09.2018, 06:07

http://online.fliphtml5.com/rdnl/mgjc/#p=40

الاغتراب كمبطئ لنموّ الأطفال

بيتر بندلي

الرأسماليّة المفترسة (predatory capitalism)

التغييرات الاجتماعيّة والسياسيّة في السنين الماضية لم توصل الرأسماليّة فقط إلى الانتصار، إنّما ساعدت أيضًا على تطوّر الرأسماليّة المفترسة وانتشارها وتشريعها. عندما لا تُحدّد سياسة السوق أو تنظّم، وعندما تصل بنا التجارة إلى عدم مراعاة حاجات الآخر، ولا يريد الفرد سوى ارتفاع ربحه الشخصيّ، عندها تبتعد الرأسماليّة من السوق الاجتماعيّ الاشتراكيّ إلى الرأسماليّة المفترسة. وينحصر الطموح حينذاك فقط في ازدياد الأرباح الشخصيّة، وكلّ شيء آخر يختفي ونتيجة ذلك هو التباعد الاجتماعيّ. عدم ضبط السوق وإطلاق عنانه يجعلان مركزيّة الذات والأنانيّة في المقام الأوّل. هذا ما يسهم في أن تصبح تلبية الاحتياجات الأدنى الخاصّة الهدف الأساس. وبذلك تحتلّ إمكانيّة تلبية الاحتياجات الخاصّة حيّزًا مهمًّا من شخصيّة الإنسان. هذا ما يؤدّي إلى فقدان الإنسانيّة عند البشر. فيتغرّب الإنسان عن نفسه لأنّ رجاءه وسبب وجوده ما عاد بكونه كائنًا اجتماعيًّا يتعاون مع الآخر ويتعاطى معه. فتملّك المادّيّات يصبح هدف الوجود الوحيد.

تقويم النموّ العاطفيّ

دخلت هذه التطوّرات الاجتماعيّة في المجالات التربويّة ونلمس آثارها في تصرّفات الأطفال. كما اختفت قيم كالمبالاة وقبول الآخر وتأجيل تلبية الحاجات الخاصّة والانتظار، وحلّ مكانها اللامبالاة والتعصّب تجاه من له رأي مختلف، وتلبية الاحتياجات الخاصّة من دون القدرة على الصبر أو الانتظار. هذه المقاربة السطحيّة وبخاصّة ما ينشره بعض علماء وأطبّاء نفس الأطفال تنقصها وجهة نظر شاملة ومعرفة تربويّة تصل إلى النتيجة المرجوّة، وهي أنّ تصرّفات الأطفال تأتي نتيجة تخلّف أي عدم نضج عاطفيّ عندهم.

تحديد تخلّفٍ ما، أي اكتشاف عدم النضوج، مرتبط دائمًا بالمقابلة بمقياس ثابت وهو يكمن في تباطؤ النموّ أو توقّفه. المقياس المحدّد الذي يقابل به هو نتيجة حسابيّة تحدّد معدّل المهارات حسب العمر، بناءً على مراقبة تصرّفات أطفال اعتبروا ناضجين. فهذا المقياس ليس له مرجعيّة مطلقة إنّما نسبيّة. فالأولاد الذين تمّت مراقبتهم يعيشون في مجتمع وثقافة خاصّة بهم. ولا يمكن لنا أن نحدّد مراحل النموّ عند الأطفال خارج ذلك السياق الثقافيّ.

جون بياجي (Jean Piaget)

جون بياجي، أبرز عالم نفس نمائيّ، حدّد بناءً على مراقبته الأطفال مراحل نموّهم المختلفة عند تكوّن الذكاء عندهم. الفروقات التي كشف عنها عدد من علماء النفس النمائيّ في السنين التي تلت، أشارت إلى أنّ تصنيفات بياجي لا تطبّق إلّا على أطفال يتعلّمون وفق نمط مدرسيّ محدّد، وأنّ الأولاد الذين يتعلّمون بحسب منهجيّة مدرسيّة مختلفة، نموّهم العاطفيّ مختلف جذريًّا عن

2 von 5 20.09.2018, 06:07

http://online.fliphtml5.com/rdnl/mgjc/#p=40

الاغتراب كمبطئ لنموّ الأطفال

بيتر بندلي

أولئك الأطفال. فحسب النمط المدرسيّ تتطوّر المهارات العاطفيّة عند الأولاد في أعمار مختلفة. هذا الفرق في تطوّر المهارات ليس دليلاً على عدم نضوج فئة من الأولاد دون الأخرى أو تخلّفها. بناءً على ذلك لا يمكننا التحدّث عن تباطؤ النموّ أو تخلّفه خارج الإطار الاجتماعيّ الذي يعيش فيه الأولاد، أي في إطار اجتماعيّ محدّد. تغيّر القيم الاجتماعيّة الذي حصل في العشرين سنة الماضية، والذي أدّى إلى نشأة الرأسماليّة المفترسة، له علاقة مباشرة بتصرّفات الأطفال من دون أن يكون له علاقة بما نسمّيه المهارات العاطفيّة ومراحل نموّها. بناءً على هذا المنطق وهذه المنهجيّة يمكن أن نعتبر عددًا من التصرّفات عند الأطفال غير طبيعيّة، رغم أنّنا كنّا نعتبرها منذ عشرين أو ثلاثين سنة طبيعيّة. نظرتنا اليوم هي عبر مقاربات يومنا وقيمنا الاجتماعيّة الحاضرة التي تختلف عن قيم الماضي.

علينا في هذا النقاش ألاّ نعتبر المهارات العاطفيّة فقط كشيءٍ حتميٍّ بيولوجيّ ثابت لا يتغيّر عند الأولاد، ويمكن للأهل أن يسبّبوا التباطؤ بتربيتهم السلبيّة. ونحاول هنا أن نميّز بين تصرّف الطفل السلبيّ بسبب المستوى العاطفيّ والتصرّف السلبيّ الذي يشكّل ما تعلّمه الطفل.

عندما يتعاطى الأهالي أو الأساتذة هذا الموضوع نلاحظ أنّ تحليلهم للحاضر يشبه البكاء على الأطلال. فهم يتكلّمون على الأيّام الماضية الرائعة عندما كان الأولاد يطيعون كلمة الأهل، وينفّذون ما يطلب منهم، لأنّ الأهالي كانوا يهتمّون ويصرفون وقتهم مع أولادهم. وكأنّ كلّ شيء بالأمس كان جيّدًا. إلاّ أنّ طريقة التفكير هذه غير صحيحة وغير مفيدة. لذلك لا يمكن أن تؤخذ الخلاصة أنّ الأهالي لا يهتمّون بأولادهم لأنّهم مشغولون بأنفسهم أو يتعاطون طوال الوقت مع وسائل التواصل الاجتماعيّ. فالخلاصة هي أنّ عدم تركيزهم على الأطفال وقلّة الاهتمام بهم يؤدّيان إلى تدهور المستوى الاجتماعيّ. ونتيجة لذلك يأتي تباطؤ نموّ الأطفال العاطفيّ. القرار الذي يؤخذ والإرشاد الناتج من هذه التحاليل يؤدّي إلى اتّهام الأهل بأنّهم يهملون أولادهم ولا يعطونهم الاهتمام الضروريّ. والنصيحة تكون حينئذٍ أن يصرفوا وقتًا معهم ويزيدوا الضغط عليهم لكي يطيعوا ويدرسوا وينَمُّوا مهاراتهم. إلاّ أنّ هذه النصيحة لا تفيد نهائيًّا. لا أريد أن أقول إنّ تمضية الوقت مع الأطفال وطاعة الصغار والاهتمام بالدراسة ليس مهمًّا. لكنّ هذا لا يزيل المشاكل التي نتكلّم عليها لأنّ السبب لا يكمن في التربية السيّئة إنّما في تغيير القيم الاجتماعيّة. ولا يمكن لنا أن نصل إلى هذه الخلاصة إلاّ إذا كانت الرؤية شاملة، وتحتوي وجهة نظر تربويّة واجتماعيّة ونفسيّة وتدرك الخلفيّة الرأسماليّة المفترسة، ومشكلة الاغتراب الناتجة منها وتأثيرها في القيم الاجتماعيّة وتطوّر الأخلاق ومن ثمّ تصرّف الأولاد.

3 von 5 20.09.2018, 06:07

http://online.fliphtml5.com/rdnl/mgjc/#p=40

الاغتراب كمبطئ لنموّ الأطفال

بيتر بندلي

فماذا يمكن أن نفعل؟

الخطأ الجذريّ الذي يُرتكب يكمن في إعادة نظريّات قديمة وتلبيسها ثيابًا جديدة. فإذا فشلت في الماضي ستفشل عند إعادتها في الحاضر أيضًا. بالإضافة إلى هذا لا يمكن اقتراح حلّ من دون أن تكون له خلفيّة علميّة متينة بعد حصر الاحتياجات وتحديدها. فهذا تمامًا ما يحصل في أيامنا، إذ تسيطر النظريّة الطبّيّة والصيدليّة (فقط لبيع الدواء، سواء كان الطفل بحاجة إليه أو لا) فينصح أطبّاء نفس الأطفال في هذه الأيّام بعلاج سلوكيّ للطفل أو عبر الأدوية. أمّا المربّون فينصحون بالدعم وزيادة الواجبات أي «بالرصّ» وبالسيطرة عبر القمع والخوف والشعور بالتخلّي.

وصل إلينا عدد كبير من النظريّات والإرشادات يمكن لها أن تفيد على المدى القصير. أمّا على المدى البعيد فهناك العديد من الأضرار التي تنتج من هذا التعاطي مع الأطفال، غير أنّنا لا نرى العلاقة بين المشكلة الأولى التي قُمِعت والمشكلة التي تظهر بعد فترة ولربّما كانت هذه الفترة طويلة.

إليكم هذا المثل؟

سمعت عن طفل في الخامسة من عمره، عصبيّ المزاج يبكي ويصرخ ولا يطيع. كلّما رُفض له طلب أخذ ما يطالب به ورماه على الأرض أو كان يضرب أخوته. لم يتمكّن ذلك الطفل من الانتظار رغم أنّ الأطفال البالغين من العمر خمس سنوات تكون قد تطوّرت عندهم مهارة تأجيل تلبية الحاجات العاطفيّة والقدرة على الانتظار. حسب نظرة علم نفس النموّ يكمن التباطؤ عند هذا الطفل، لكونه يتصرّف كطفلٍ دون السنتين. قيل لأهله من دون أن يُفهم وضع الطفل هذا، إنّ عليهم أن يعلّموه السمع وألاّ يسمحوا له بأن يتصرّف كما يشاء. أيضًا قيل لهم إنّ عليهم أن يتجاوزوه ليشعر بأبعاد ما يفعل، وكلّما كسر شيئًا ما عليهم أن يكسروا لعبة من ألعابه. لكنّ هذا لم يجدِ نفعًا. أخيرًا أرادوا معالجة الطفل فلجأوا إلى معالج نفسيّ قال لهم كلّما بدأ الولد بالصراخ، تتركونه في غرفته، وتخرجون بعد أن تقولوا له إنّكم تنتظرون أمام باب غرفته وتسمحون له بالخروج عندما يهدأ. أوّل مرّة بقي يبكي أكثر من ساعة. مع الزمن تعلّم أن يهدأ بسرعة، وبعد ثلاثة أشهر توقّف الولد عن الصراخ وتحطيم المادّيّات. بعد عام تقريبًا لاحظ الأهل بعد أن لفتت المدرسة نظرهم إلى أنّ لدى هذا الطفل ضيق نفس ولذلك لا يتمكّن من القراءة الجيّدة. الطبيب النفسيّ الذي كشف على هذا الطفل أعطاه تمارين ليتعلّم التنفّس من جديد، من دون أن يعطي الأهل تفسيرًا عن السبب. فهذا التصرّف نتج لأنّ الولد لم يعطِ نفسه الوقت الذي يحتاج إليه للتنفس. القارئ يمكن أن يرى هنا وضعين لا علاقة للواحد بالآخر. إنّما إذا نظرنا إلى الإنسان ككائن واحد وأنّ كلّ شيء حاضر متعلّق بما حوله وبالماضي نتمكّن من فهم هذا الطفل. عندما حُبس هذا الولد في غرفته شعر أنّ أهله تركوه وأنّهم لا يحبّونه كما هو، ولا يحبّونه

4 von 5 20.09.2018, 06:07

http://online.fliphtml5.com/rdnl/mgjc/#p=40

الاغتراب كمبطئ لنموّ الأطفال

بيتر بندلي

إلاّ إذا أصبح كما يريدون. شعر بالوحدة وأنّ أهله غادروه. فهو لا يعرف إذا كانوا أمام باب غرفته يقفون مضطربين. فتعلّم من تهديد وجوده هذا أن ليس له الحقّ في الحياة، وبدأ التوقّف عن التنفّس (هذا الذي حصل لا يدركه الولد، فالدافع منبثق من اللاوعي). وهكذا يمكننا أن نلاحظ العلاقة بين الوضع الثاني والوضع الأوّل، وأنّ الحالة الثانية نتيجة تصرّفات الأهل في الحالة الأولى. تقويم تصرّفات الطفل، إذا وضعناها تحت المجهر ونظرنا إليها بانفراد عن الرابط الاجتماعيّ، نصل إلى أن نعتبرها مشاكل سلوكيّة. والخلاصة أنّ هذا الطفل يعاني من تباطؤ بالنموّ. وضَعْنا هذا الطفل ضمن إطار عائلته ورأينا أنّ والده كتاجر ناجح في جمع الأموال من دون مراعاة الآخرين أو اعتبار حاجاتهم، نقوم بتقويم مختلف لهذا التصرّف. الولد يعكس بما يعمله تصرّفات الوالد التي يراها كلّ يوم ويتعلّمها. فعدم استطاعته الانتظار ليس بسبب تباطؤ عاطفيّ أو إرادة إزعاج أهله إنّما هو نتيجة تأقلم اجتماعيّ والتعلّم بالتماثل مع الوالد.

التعلم بالتماثل

هكذا نرى تصرّفات الأطفال التي تزعج الأهل والمربّين، والتي تعكس ظاهريًّا تباطؤ النضوج العاطفيّ، وبالصميم ليست إلاّ نتيجة التماثل بتصرّفات الأهل والاغتراب عندهم الناتج من انتشار الرأسماليّة المفترسة. بناءً على ذلك فالتغيير شامل ويبدأ بتحديد القيم الاجتماعيّة. وللسياسة أهمّيّة كبيرة في سياق هذا التغيير. على الفلاسفة أن يفسّروا الحياة من جديد ويحدّدوا القيم بدلاً من الاقتصاديّين. عليهم أيضًا مراعاة حاجات الآخرين واحترامهم وكذلك الابتعاد عن الطمع، وأن يصبّوا قيمًا يريدها المجتمع ويسعى نحوها. تتكوّن شخصيّة الإنسان عند الطفولة بنمط التعلّم من المثال. أي أنّ الأولاد لا يتعلّمون ممّا يقوله أهلهم لهم، إنّما ممّا يرون أهلهم يعملونه. فالأولاد ليسوا بحاجة إلى قواعد التصرّف، الجزاء، التوبيخ أو الرصّ، إنّما بحاجة إلى نموذج يعيش أمامهم التصرّفات التي يريد الأهل أن يتعلّمها أولادهم. حينئذٍ يأخذونهم قدوة. عبر ما يعيشه الأولاد ويدركونه، تبنى خلايا عصبيّة في الدماغ تسمّى «خلايا عصبيّة مرآتيّة». مهمّة هذه الخلايا تقليد التصرّفات المراقبة، ودورها في التعلّم أساس لأنّ المهارات وطرائق التعامل مع الآخر تخزّن في الذاكرة لتصبح أساس التصرّفات الشخصيّة.

خلاصة

الأهل مسؤولون عن نموّ أولادهم الجسديّ والعاطفيّ. هم قدوة للبنين والبنات كي يتمثّلوا بهم ويقلّدوا تصرّفاتهم. الأهل جزء من المجتمع فهو يشكّلهم ويقودهم. هكذا يعيشون مبادئ وقيمًا تستند إلى قيم ومبادئ المجتمع أمام أطفالهم. لكي يتمّ النموّ العاطفيّ عند الأطفال ويتعلّموا المهارات الضروريّة للعيش المشترك، يجب أن يُعاش ذلك التصرّف أمامهم. وكلّ ذلك لا نتمكّن منه كلّيًّا إلاّ إذا بدأنا فردًا فردًا بالتغيير وبالابتعاد عن التفكير الرأسماليّ المفترس.■

5 von 5
20.09.2018, 06:07